

الحوار القرآني بين مدخلات الواقع ومخرجاته

The Qur'anic Dialogue Between Reality Inputs and Outputs

بوهراوة مداني*

جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس الجزائر

bouhraouamadani0@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/28

تاريخ الاستلام: 2025/09/10

ملخص:

تتناول الدراسة تحليل طبيعة الحوار القرآني من حيث مفهومه، وأنواعه، ووظيفته الجماليّة والدramيّة في وصف الشخصيات المتخاطرة في مظهرها الخارجي، والداخلي. وترصد طبيعة مدخلات الواقع في هندستها عمليات الاتصال والتواصل بين المتحاورين التي تتحكم مخرجاته في تشكيل القيمة الإعلامية للحوار القرآني المرتبطة بآليات التفكير المختلفة. الكلمات المفتاحية: الحوار؛ القيمة الجمالية؛ القيمة الإعلامية؛ مدخلات؛ مخرجات.

Abstract:

The study deals with an analysis of the nature of Quranic dialogue in terms of its concept, types, and its aesthetic and dramatic function in describing the interlocutors in their external and internal appearance. And the nature of the input of reality in its architecture monitors the mono connection and plural communication processes between the interlocutors whose outputs control the formation of the media value of the Qur'anic dialogue related to the various mechanisms of thought.

Keywords: Dialogue; aesthetic value; media value; inputs; outputs.

1. مقدمة:

في البدء كان الحوار تأسيساً لوجودٍ سَيَتَشَكَّلُ منه واقعُ النَّاسِ المشهود. وكان الحوار بين الباطن خالفاً، وبين المبتوث إليهم مخلوقين. تأسست قداسة الحوار على استخلاف الأرض استشرافاً من جهة. وهو ما يُمثِّلُ حركةَ الخلق الموجبة. ومن جهة أخرى على الاحتياط، والتساؤل التعجبي الذي يمثِّلُ تساؤل الملائكة الكرام عن المخلوق -المُخاوِر- الافتراضي الذي سَيُفَسِّدُ في الأرض بسفك الدماء. وهو ما يمثِّلُ حركةَ الخلق السلبية. وهذا التَّهْيُؤُ في خلق الإنسان بالكلمة أو بالخلق الطَّيِّبِ¹ هو الذي يعتمدُهُ هذا الحوار في نظرية الخلق.

فقيامُ الحوار (الإلهي/الملائكي) على رؤية إيجابية فاعلة، ورؤية سلبية منفعة ترتبط بطبيعة التدخلات التي تُبْرِزُ غاية الخلق. وتتوقُّ بطبيعة المخرجات التي تُشكِّلُ الواقع افتراضاً. وهذه الثنائية الحوارية تختصر مسافة العبور من عدم الاختياري إلى الوجود الفعلي. فللحوار أهميته، ووظيفته التي رافقت عملية الإبداع الكوني في معرفة طبيعة الحياة الإنسانية. فما هي طبيعته؟ وتأثيره النفسي في تشكيل الوجود كواقعٍ معيش، وافتراضي قابلٍ للتحقق انطلاقاً من التعرف على الحوار القرآني؟

ولاستمرار التواصل الإنساني مظاهر عديدة. منها ما هو مُتَجَلٍّ، ومنها ما هو مُرْتَجَى. وبين تحلي الاتصال، ومُرتجاء الحوار الذي يعكس ما تم وقوعاً، وبين ما هو مُتضارعٌ ممثلاً يتكوّن المشهد في كامل حركيته، وديناميته الإنسانية المتفاعلة.

ولهذا الحوار أهميته في تشخيص الإنسان، وواقعه تشخيصاً مادياً خارجياً، وتشخيص واقعه الداخلي نفسياً، وفكرياً تشخيصاً معنوياً اعتبارياً. وهذا التشخيص مرتبط بالإنسان منفرداً. أمّا إذا اختصَّ به مُغايراً فقد يَعدُّ تصويراً درامياً يعكس صراع الإنسان، وتفاعله المتباين في صناعة مشهديات الحياة في امتداد حركيتها، وديمومتها. كما له -الحوار القرآني- خصوصياتٍ انفرد بها من حيث طبيعة تدخلاته التي احتوت المكان فضاءً إنسانياً. تتجسّد عبْرهُ الطَّبيعة الإنسانية كفضاءٍ/ حيزٍ تتلاقى فيه التّوازُنُ النَّفْسِيَّةُ، والبواعثُ الفِكْرِيَّةُ. وتتلاقح فيه اقتراباً، وابتعاداً. وانفرد -أيضاً- بخصوصيات من حيث طبيعة مُخرجاته التي سيحتويها الواقع المأمول افتراضاً. أي ذلك العالم المرتقب نُشوؤه، وارتقاؤه. وتشكُّله في نفسية المتحاورين ابتداءً، وفي نفسية المحيطين بهم انتهاءً.

فالحوار القرآني، في هذه الرؤية، ينتقل من واقعٍ معيشٍ بإحداثياتٍ مُعيَّنة ثابتة إلى واقع افتراضيٍّ سيعاش -ولو تجرّداً، وبعد حين- بإحداثياتٍ متغيّرةٍ باستمرارٍ. هذه الآلية الحوارية تُشكِّلُ بيداغوجياً فارقية² في بيداغوجيا كفاءات الاتصال (الواقع المُكَيَّفُ، المعيش)، وكفاءات التواصل (الواقع الافتراضي، الواقع المُتَكَيَّفُ). وهذا ما سنعتمده كمنهج جماليٍّ يقوم بوصف طبيعة الحوار، ومعرفة آلياته التفاعلية في رسم ملامحه التواصلية كآليات اشتغال، واستغراق لطبيعة المشمول بعملية التّحاور. فكفاءات الاتصال تُحيلُ على طبيعة المتحاور الداخلي (النفسية)، والخارجية (الملمح الماديّ الخارجي). أمّا كفاءات الاتصال فتُحيلُ عمودياً من الأعلى نحو الأدنى. أمّا كفاءات التواصل فتُحيلُ على طبيعة المتحاورين (الدَّاخلية، والخارجية) إحالةً أَفْقِيَّةً. تستلزم الصِّراع التفاعلي من المتحاورين استلاماً يُنمّي الحَدَثَ، أو يُرْمِيه، أو يُوجِّهه نحو مقاصد تشكِّلُ به. فالإشكالية المطروحة فتمتدُّ في معرفة ماهية الحوار القرآني؟ ومدى وظيفته في تصنيف مستوياته؟ وما طبيعة تدخلات واقعه (المعيش، والافتراضي)، ومُخرجاته؟ وكيفيّة صناعته الحياة؟

2. مفهوم الحوار القرآني:

1.2 تعريفه لغةً:

اشتقت كلمة "الحوار" من "ح و ر" التي ارتبطت بدلالات متباينة لكنها غير متناقضة. ومن تعريفاتها ما تشابهت في نهلها من مصادرٍ واحدةٍ ما أكّده الفيروزآبادي بأنّ كتابه هو "صريحُ اللَّفِي مُصَنَّفٍ من الكتب الفاخرة، وسنيحها"³. وبهذا تكون متعدّدة المحمول. و"الخوَرُ": هو الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء. يقال حَارَ إلى الشيء، وعنه خوَرًا، وخَوَرًا، وخَوْرًا، وخَوْرًا: رجع عنه وإليه. قال العجاج:

في بئرٍ لا خوَرٍ سَرَى ولا شعرٍ بأفكِهِ حتى رأى الصبحَ جَشَرَ

وهو يقصد في بئرٍ لا خوَرٍ. أي رام: في بئرٍ ماءٍ لا يَجِرُّ عليه شيئًا. وكلُّ شيءٍ تغيَّر من حالٍ إلى حالٍ. فقد يَخُوَرُ

خَوْرًا. قال لبيد: وما المرءُ إلّا كالشَّهابِ وضوئه يَخُوَرُ رمادًا بعد إذ هو ساطع

كما دلّت "الخوَرُ" على الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء كالمخار، والمخارة، والخوَرُ. يقال: كَلَمْتُهُ فما رجع إلي حوَارًا، وحوَارًا، ومُخَاوَرَةً، وحويرًا، ومُخَوَرَةً، أي جوابًا. والاسم منها الخوِيرُ. تقول: سمعت حوِيرَهما وحوَارَهما. والمخاورة: المُجَاوِبَةُ (مراجعة التّلق)، والكلام في المخاطبة. وتجاوزوا: تراجعوا الكلام بينهم. وهم يتراوحون، ويتحاورون. جاء في صِحَاح الجوهري⁴: أنّ كلمة "خوَر" وردت بمعنى الرجوع من الفعل حار، يخور، حورا وخوورا. يقال: "حَارَ بعدما كَارَ". و"نعوذ بالله من الخوَر بعد الكوَر". أي من النقصان بعد الزيادة. وتأتي الخور بالضّم. وفي المثل: "خوَرٌ في محارة". أي نقصان في نقصان. بقول الشاعر:

واستعجلوا عن خفيف المَضْغِ فازدردوا والذّمُّ يبقى وزادُ القوم في خوَرٍ

و"الخوَرُ" تعني الرجوع في الكلام. وهي كالمخار، والمخاورة، والخوَرُ، والنقصان. أما "بعيد الخور" أي عاقل. فإذا ضُمّت (الخوَرُ) فتعني الهلاك. وتجاوزوا أي تراجعوا الكلام. ومما تمّ عرضه تحدّد دلالات الحوار في:

■ الإنابة والرجوع عما تمّ تقديمه أو قوله. أو هو الالتفاف نحو البدء الذي كان منطلقا. والمخاور قد يعود عن رأيه إلى رأيٍ محاورٍ آخر. رأى في رأيه صوبا لخطأ، أو ترميما لِمُتَشَوِّهِ فكرة أو تصوّر أو حلٍّ من الحلول المطروحة للنقاش. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَخُورَ﴾ الانشقاق: 14. أي لن يرجع مبعوثاً يوم القيامة كما كان من قبل. فالرجوع نحو البدء لنقصٍ متوقّع تصحيحه.

■ الاستباحت عملية استكشاف حقائق الأمور، ودسائسها. فكل متحاور يستجلي غوامض آرائه من مستقدحات آراء الآخرين الذين ينيرون له سبيل إصابة الحقائق. وهو ما يعمل به قضاة التحقيق في بحثهم عن الحقيقة كما يراها (رينيه ديكارت)⁵ حُجَّةٌ وَحْدَةً الحقيقة لاختلاف الناس علما بها: "لا يتمثل تعدّد حُجَّةٍ ذاتٍ بالٍ بشأن الحقائق التي يصعب اكتشافها قليلا، لأنه الأقرب إلى الاحتمال أن يعثر عليها رجل واحد من [أن يعثر عليها] شَعْبٌ بأسره". ومثاله قوله عز وجل: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾. الكهف: 36. فالتحاور تمّ ببحث أسباب الكفر وقوفا على الركن المعنوي -دافع الكفر- لوجود الركن المادي -الخروج عن الملّة-.

■ ترميم الآراء بنقدها، وإطراح معوجها، وعليها. فبالتحاور تُستجلى مُبَيَّات الأفكار بكثرة عوارض الآراء. وبتضاد الأمور تُفهم مقاصدها. وهذا ما يمثل انفراجا دلاليًا، أو عقديًا في مواقف المتحاورين المتطرفين لأقصى ما تكون جهة الانتماء. والشاهد قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. المجادلة: 1.

ففي هذا الموقف استعمل الفعل "تجادل" لسوق دليل قد لا يرقى إلا اليقين في نظر الزوج. فالجدل مرتبط برأي أحادي خاص يمثل تطرفًا في الموقف. أما اللفظ الثاني فهو المصدر مجرّدًا من الزمان لإثبات عدل الاستماع الإلهي دون ترجيح جدل المتجادلين. فالجدل، وإن أخذ مفهوم المباشرة والمغايرة، فهو أخص من الحوار الذي يُعدّ عامًا، ومجرّدًا.

■ تعدّد مستويات الخطاب من نمط إخباري إلى نمط توضيحي، أو استفساري، أو استقصائي، أو جدلي. وقد يحوي الحوار أنماطًا متعدّدة بتعدّد الهدف من المحاور. فهو تداخلٌ معرفيٌ يمثلُ فسيفساءً فكريةً، أو نفسيةً، أو عقديّةً. وكثيرا ما يتجلى هذا السببُ الكلامي في مسرح الأحداث. فهو ذو طبيعة مسرحية. ولعلّ أبرز مثالٍ نتقرب به إلى فهم هذا النوع ما جاء في قول الله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، الكهف: 34. وفي السياق نفسه من قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا. لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. الكهف. الآيتان: 37-38.

فانطلاقًا من نمط الآية الأولى التقريرية بأنه الأكثر مالا ونفوذًا. "ومن عزّ بزّ". أي من عزّ بماله بزّ الناس، وتحكمّ فيهم وأذلّهم. وبه يأتي تقرير القوّة الماليّة، والعدديّة. أما الآية الثانية فانتقال إلى التساؤل أو الاستفهام الإنكاري المتمثل في إنكار كُفْرِ المحاور خالفه الذي أوجده من عدم. وتكرّم عليه بالمال، والجاه. وهذا التّقابل يُمكنُ عرضه مسرحيًا في حوار ثنائي القطب. يثير موقفًا دراميًا مُشبّعًا بالحزن، والأسى على ما آلت إليه أمور العقيدة.

■ ارتباطه بقضايا معيشية تتطلّب إجابات محدّدة لاستفسارات خاصّة كالإيناس الذي خصّ به موسى عليه السلام. أو بتقارير تتواشجها علائق المنفعة التي تُنتظر من المتحاورين. ومن ذلك ما جاء في قوله عز وجل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى، قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾. طه: 17-21.

وجاء قول الله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهامًا على سبيل الإيناس، أو تثبيتًا له. لأن ما سيُشاهدُه قد يخيفه، أو يُزديده صريعًا. أو هو على وجه التقرير أي: أمّا هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها. فسُترى ما نصنع بها الآن. ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾. هو استفهام تقرير، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾. أي: أهُزّ بها الشجرة لئلا تساقط ورثها لترعاه غنمي. وبه جاء التفصيل عن وظيفيّة العصا المتعدّدة التي لم يُخصّصها جوابه بقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ إذ تُركت مفتوحة.

وهذا يُسلّمنا إلى أن الحوار اختلافٌ تباينٌ في الظاهر. وهو سَعَةٌ، ونمَاءٌ، وتَلَوُّنٌ في الباطن. وفي قول ابن تيمية: "صَنَّفَ رجلٌ كتابا في الاختلاف. فقال أحمد لا تُسمِّهِ كتابَ اختلافٍ، ولكن سَمِّهِ كتابَ سَعَةٍ" جلاءٌ لذلك. أي أن الحوار اتِّساعٌ فَهْمٌ، وتعدُّدٌ رأيٍ لقضاء الأحكام، والأصول. بل هناك مَنْ رآه، ويراها وجبا كدليلٍ صَحَّةٍ على اختلاف الأفضاء باختلاف الأعصار، والأمصار. ومنه نستشف أنها دعوةٌ صريحةٌ إلى ضرورة تقنين الاختلاف، وجعله هدفاً في حدِّ ذاته. فالتوافق الكُلِّيُّ بين المتحاورين نفاقٌ، والاختلاف الكُلِّيُّ بينهم شَتَاتٌ، وفُرْقَةٌ، واختلافٌ. وللحوار مفهوم الجدال الذي اشتقَّ من شدة القتال كما في قول امرئ القيس: **وكَشَحَ لطيفٌ كالجديلِ مُخَصَّرٌ وساقٍ كانبوبِ السقيِّ المذللِ.** وأشار الأصمعيُّ بأن الجادلَ هو ابنُ الناقةِ الرَّاشِخِ. وهو الذي قَوِيَ وَمَشَى. ومما يعنيه أيضا اللَّدَدُ في الخصومة، والقدرة عليه. فجَدَلَ الشيءَ، يَجْدِلُهُ جَدَلًا. أَحْكَمَ قِتْلَهُ. والجَدْلُ معناه الصَّرْعُ على الجدالة. وهي الأرضُ لشدَّتها. قال الرَّاجِزُ⁶: **فَدُ أَرْكَبُ الآلَةَ بعد الآلَةِ وَأَتْرُكُ العَاجِزَ بالجدالَةِ**

وتأتي المناظرة من التقابل، والتناظر في طرح الآراء على سبيل المنازعة، والمغالبة. فهو ذلك الكلام الدائر بين المتناظرين في مسائلٍ معيَّنةٍ بغيةٍ إبطالِ حُجَجٍ، وتثبيتِ أخرى مع رغبةٍ كلِّ طَرَفٍ في امتلاكِ الحقِّ. وقد لا يكون التعريف الاصطلاحي بعيداً عن التعريف اللُّغويِّ لما بينهما من وشائجٍ دلاليَّةٍ. تسمح بعبور دلاليٍّ من تعريفٍ لآخر.

2.2. تعريف الحوار اصطلاحاً:

وبعد استعراض دلالات المصطلح اللُّغويِّ يمكننا القول: إن المعنى الاصطلاحي للحوار هو: محادثةٌ، أو تجاذبٌ لأطراف الحديث. يسوق كلاماً تُفهمُ قُصُودُهُ بين شخصين، أو أكثر، أو بين فريقين، أو أكثر بطريقة تداولية دائرية. يَغْلُبُ عليه طابع الهدوء، والاتِّزانُ النَّفسيُّ لاستعراض كُلِّ طَرَفٍ آراءَهُ، ونظريَّاتِهِ في جَوِّ من الاحترام المتبادل. ويُضَافُ إليه أن المتحاورين لا يكتفون بما يملكون من حجج، وآراءٍ فَحَسَبُ بل يقومون بعملياتٍ عديدة منها:

— التخلي عن الأفكار السابقة التي لا تتلاءم والعرض الجديد لما يكتشفه فيها المتحاور من نقص. وهنا تنازل بمحض الإرادة.

— ترميمُ بعض الأفكار، والحجج التي اكتسبها من خلال آراء الآخرين التي تتميز بالقوة العقلية، والثبات. ففيها استفادةٌ من آرائهم.

— البقاء على سابق الحجج، والأفكار، والتعنُّت بالتشبُّث بها. وفي هذه الخطوة بقاء، وجمود على ما كان عليه قبل بدء عملية الحوار. وهذه المستويات التي تحدِّد طبيعة المتحاور تُشكِّلُ عملية العصف الذهنِيَّ التي تغدو أكثر كفاءةً من العمل الفردي لإنتاج الأفكار التي تُستخدَمُ في كثير من المجالات: كـمجال حلِّ المشكلات المتعلقة بطبيعة المشكلة التي يتحاور من أجلها المتحاورون. ومجال بناء فرق عملٍ أو مجموعات تقوم بتنفيذ مشروع تبنته انطلاقاً من سبيلٍ مراحل المحاورة. ومجال التخطيط العملي الذي سيكون ناتجاً عما تمَّ طرحه أثناء عملية التَّحاور.

خلاصة القول إنَّ ما تمَّ عرضه من مصطلحات: "الحوار، الجدال، المناظرة" يشير إلى أنها عملية مؤسسة على التعارض والاختلاف. سواء أكان هذا التعارض سلبياً المنحى أم ترميمي المبنى والمقصد أم إيجابياً اللَّفْحِ وتنمية الأفكار الذاتية. فإنه لا يتخذ الطابع العدائيَّ الإلغائيَّ المتطَرِّفَ - كما هو حال الجدال العقيم - أو التباهي، والتعالي بالموروث الفكري، والعلمي للمتناظرين - كما هو حال المناظرة-.

بل هو انسجام، وتمازج في رفيع أدب، وسموّ أخلاق - كما هو حال الحوار - . وعليه؛ فإن الحوار⁷ "تواصل" يُحْيِلُ اللغة دلالة التبليغ. وآية التبليغ أن تتقابل الشخصيات في الحيز الذي يتيح لها قراءة شارات الصدق والكذب في أحوالها". فهو، بذلك، طريق حضاريّ لتشكيل المسعى الإنسانيّ المشترك. فبالحوار - وليس بالحوار - يبيّن الناس ملكهم، ويُسوِّسونه. وللحوار الذي تَبَيَّنَتْ خصائصه وظيفته هامة في رسم ملامح الشخصية الداخليّة، والخارجية. فيه، وخده، يُمكن فهم الحركة الإنسانية، وتتبع مسارها، وطبيعة مكوناتها، وتوقع أفعالها المستقبلية واقعيًا أو افتراضيًا. فما هي، إذًا، وظيفة الحوار القرآني؟

3. وظيفة الحوار القرآني:

للحوار القرآني وظائف متنوعة تُسهم جميعها في تصوير الشخصيات في وضعياتها التفاعلية، والتواصلية، وتقدير الموقف المرتبط بطبيعة الفعل الذي سيتشكّل منه الوجود الإنسانيّ بمختلف الأبعاد اجتماعيا وثقافيا... ومن الوظائف التي ترافق الحوار:

3. 1. وظيفة الحوار الجمالية:

يُقصد بالوظيفة الجمالية ذلك الجانب التصويري الوصفي المرتبط برسم أبعاد الشخصية الحسية، والعاطفية. وهو الجانب الجمالي المتكامل للشخصية التي نستحضر لها مثالا يُشكّل لها صورة في خيالنا الفردي أو الجمعي. فنحدّد موقفنا الوظيفي منها. وهذا الموقف مرتبط أشد الارتباط بأحد مظهريها الداخلي، والخارجي أو بكليتهما معًا. وهي بذلك؛ تُجسّد مظهرين: خارجيًا، وداخليًا.

أ. المظهر الخارجي:

كثيرا ما يُسهم الحوار في رسم ملامح شخصيات الحوار. ومن ملامحه، مثلا، طول الشخصية، وقصرها، نحافتها أو بدانتها، لونها، جنسها، ملابسها، فقرها وغناها إلى آخر الصفات الحسية التي تُستخدم -تصريحا أو تضمينا- لتقديم الشخصية المتوقعة منها أن تكون محورية الفعل، والحركة، والقابلة للمشاهدة، والقياس. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. البقرة: 11. فأساس الحوار كان منطلقا من قبل فئة ساقطة المعتدّ شرطا لدخول غيرهم الجنة مع سؤق الأداة "لن" لنفي تأكيد دخول غير اليهود والنصارى في المستقبل. ومن مؤشرات هذا الحوار الفنيّة استخدام "لن" لنفي تأكيد المستقبل المستنبطة من الحوار. وبذلك؛ تتضح صورة المتحاورين جدالاً المتمثلة في فريقين خصمين. فريق اليهود، وفريق النصارى. فكلاهما يحزم بعدم دخول الفريق الآخر الجنة. وفريق اليهود يحزم بعدم دخول النصارى الجنة. وفريق النصارى يقرّ، عكس ما أقرّه الفريق الخصم، بعدم دخول فريق اليهود الجنة. وهذا الحوار سيُنهي بتقديم البرهان على تلك الأماني غير القابلة للتحقق.

إذا كان للحوار هذه الوظيفة الجمالية المرتبطة بتصوير المعتقد القائم على التفاضل الاستحقاقية بالفوز بالجنة. فإن له، أيضا، قدرة على رسم المنحنى الزمنيّ في كرونولوجية تفاضلية أيضا. ذلك؛ أن أساس التفاضل، في هذا الحوار، تقدّم اليهود عن النصارى في الزمن الوجودي الذي يُفترض أن يُساق برهاناً على مزاعم أمانيتهم أمام الله سبحانه، وتعالى للفوز بدخول الجنان دخولا انفراديا يقضي الآخرين. فالبعد الزمنيّ متجلى عبر تقديم أمّة على أخرى في السباق القرآني فالوجوديّ معًا. وهذه إحدى وظائف الحوار الجمالية المرتبطة بتصوير المعتقد، والتواجد الزمنيّ.

فالتصوير الأول باطنيّ تتجسّد ملامحه عبر الطُّقوس الدّينيّة من جهةٍ، وعَبَرِ المُسُوح-ألبسة رجال الدّين- المُرتدّة من جهة أخرى. وكذلك؛ زمن الممارسة الدّينيّة أيضا. والتّصوير الثاني، عبر هذا الحوار، يرتبط بتصوير الزّمن الخارجيّ في إنشاء سلسلة التواجد البشريّ تاريخيّاً. وبهذا التّصوير الذي يتكفل بنجاح الوظيفة الجماليّة يمكننا تلمّس حوارٍ موضوعيّ مبنيّ على نظرة واقعيّة متدرّجة تستحضر الآخر بمكوناته المعتقدية، والزّمانية، وحتّى المكانية في أبعاده النّفسية، والاجتماعيّة. وهناك تصوير آخر. يسترفد البعد الاقتصاديّ مرتبطاً بعلوّ المنزلّة الاجتماعيّة نظراً للقيمة الاقتصاديّة المُستحضرة في متن الحوار في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً﴾. الكهف: 34.

ففي هذا السياق نستجلي مكانة صاحب الجنّين من خلال وضعه الاقتصاديّ بامتلاكه ثمر المال-ذهباً وفضّة- التي تتعرّز مكانته الاجتماعيّة بوجود عامليّ المال، والعُصبية من الناس نفراً. يتقوّى بهم على خصومه الواقعيين، كحال مُحاوره في السّياق، أو الافتراضيين. سواء أكانوا من صُلبه استتسالا أم من رباط الرّحم حميّةً، وولاءً. فهما -المال والتّفنر- مصدرا تفوّقه الاجتماعيّ، والاقتصاديّ اللّذين يجعلان منه رجلاً هُماماً.

فدراسة وظيفة الحوار الجماليّة، في بعديها الظاهريّ، والباطنيّ تفتح لنا معابرَ بيّن العالم الخاصّ مثلاً في الآنا مُحاوراً، وبين العالم الشموليّ العامّ متجسداً في الآخر المتحاور ما يُضفي على الحوار أهميّة القصوى في تتبّع مدخلات الواقع، ومخرجاته في ارتباطها بمكونات معيش الإنسان وميعاده. وهي بهذا؛ تُسهّم في ترقية بيداغوجيا التّعبير البليغ الذي يجعل من تقابل الشّخصيات المتحاورّة متصلةً بفيض معرفيّ راقٍ. يجعلها متوتّقة الصّلة بما هو عالميّ وشموليّ. فالحوار يزدهر في مُناخ الاستقرار الذهنيّ، والتّفنسيّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والتّسامح الدّينيّ.

ب. المظهر الداخليّ:

بعدما تمّ تقديم المظهر الخارجيّ، كوظيفة أولى وابتدائيةً جماليّاً، يأتي المظهر الدّاخليّ، كوظيفة ثانيةً جماليّاً، ليصوّر لنا، عبّر منظرٍ داخليّ أجواء الشّخصيات المتحاورّة النّفسية، والشّعوريّة عبر توتّر انفعاليّ، أو ارتخاء عاطفيّ هاديّ ومُهادِن.

ومثال الأوّل يُبرزه قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. المجادلة: 01.

ففي هذا الموقف الذي جادلت فيه المرأة خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصّامت رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في زوجها الذي ظاهرها بعد ما أكل شبابها، ونثرت له بطنها، أضحت عجوزاً لا يُشْتَهى فُرُجها. لقد أثار هذا الحوار نفسيّة المرأة التي هجرها زوجها ظهاراً. وكانت متنوّعة المشاعر، مُهتَزّة التّوازع لِمَا وَجَدَتْهُ من بعلها. فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

فبعد ما كانت شابةً يطلبها زوجها. صارت منبوذة لا تُقَرَّب فِرَاشاً. فهذا الوضع النّفسيّ المتأزّم انتقل صُغداً إلى الله سبحانه، وتعالى. فاستمع إليها رادّاً شكواها إلى الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام لينظر أمرها، ويجعل لها مخرجاً من ضيقها. لقد أسهم هذا الحوار في تصوير نوازع المرأة المتأزّمة نفسيّاً، والمتضرّرة مشاعر. فكان التّصوير داخليّاً، وعبر تقنية ربّانية خفيّة. فهو "منظار" روحانيّ داخليّ. قام بوظيفة جماليّة في تصوير الكيان النّسويّ الدّاخليّ. وليس بعيداً عن هذا

الموقف، نجد موقفاً آخر لنبيٍّ أمره الله سبحانه، وتعالى وأخاه أن يتحرّكا نحو فرعونَ ليقولا له قولاً لَيْتَنا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ، أو يخشى. فما كان من موسى عليه السلام إلا أن رفع خوفه في حوارهِ مع ربِّه الكريم وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾. الشعراء: 11-12.

فالحوار متأسِّسٌ على تصويرِ الجانبِ النَّفْسِيِّ المَلَكِيِّ بالخوفِ المَبْزَرِّ. وهو يعلن ذلك في الخوف المرتبط بتكذيب قومه له، واضيقاقِ الصَّدْرِ، وحُبْسِ اللِّسانِ عن الانطلاقِ بذكر البراهين.

وهذا التَّصوِيرُ آتٍ من حوارٍ بَيْنَ نَبِيِّ وَرَبِّهِ. وهذه الاعترافاتُ ما كان لغيرهما أن يعرفها فيتخذها منفذا للاعتراض، وتحديِّ مظاهر الإعجاز. فهو من جهةٍ نقدٌ ذاتيٌّ واعٍ بالأخطاء التي يمكن أن تعصف بالمشروع الإلهيِّ أمام تَحْطِيطِ الكُفْرِ، وتَعَنُّبِ الطُّغْيَانِ. ومن جهةٍ أخرى تصويرٌ حقيقيٌّ لنوازعِ النَّفْسِ البشريَّةِ المستويَّةِ على الحقِّ في مواجهة مظاهر الكفر، والقتلِ معاً. مَوْقِفٌ متأزِّمٌ حقاً. فهو حوارٌ تدافع مع الغير مختلفاً، وتدافع مع الحياة استمراراً لمحاورةِ المختلفِ نُشْداناً للحقِّ، ووصولاً إلى حقيقة الاعترافِ بمختلجات النَّفْسِ، ووسوساتِ الشَّعْوَرِ، ووشوشاتِ الشَّفْهَةِ، واهتزازاتِ النفوسِ.

فهذه وظيفة جماليَّةٌ واحدة تتعلق بالتَّصوِيرِ الحسيِّ المرتبط بعالمِ المشاهدةِ الحسيَّةِ الخارجيّةِ، والدَّاخليةِ. فأما عن الوظيفة الثَّانِيَّةُ فهي الوظيفة الدَّرامِيَّةُ التي تُصَوِّرُ الصِّراعَ الدَّاخلِيَّ للشَّخصياتِ في تفاعلها مع جَزَايِ الأحداثِ، وصناعةِ الحياةِ في كامل اضطرابها. فهي تقوم على الثَّانِيَّةِ بَدَلِ الأَحَادِيَّةِ. فهي تقابلُ بَيْنَ موقفين يتولَّدُ عنهما موقفٌ آخرٌ جديدٌ. فالدراما هي تعيُّرُ مواقفِ الإنسان، وتجذُّدُها باستمرار. هي حركةٌ تتفاعلُ فيها مُدْخَلَاتُ الواقع، وليست سُكُونًا يقتلُ الحياةَ. بل هي صراعُ أفكارٍ، وأقدارٍ.

4. وظيفة الحوار الدَّرامِيَّةِ:

للحوارِ، كوظيفةٍ دراميَّةٍ، أهميَّتهُ في ترقيةِ التَّواصلِ الفكريِّ لكونه وسيلةً مرنةً ومطواعةً تساعدُ على ترقيةِ بناءِ طبيعةِ المعرفةِ المرادِ تنميَّتها في مثل هذه المواقف. فهو يهدفُ إلى تفعيلِ دَوْرِ تبادلِ أفكارِ المتحاورين، ومعتقداتهم، وقناعاتهم في لحظةِ صراعٍ، وتفاعلٍ تلاحُميٍّ مُتَنَامٍ وُصُولاً إلى ذُرْوَتِهِ المُنْتَهَاةِ. وهي لحظةٌ صناعةِ الحياةِ في أشدِّ مواقفِ الإثارةِ كالغضبِ، والخصومةِ، والرِّضا، والافتناع... كما يفيدُ، أيضاً، ترقيةَ آليَّةِ الإقناعِ الفكريِّ، والتأثيرِ النَّفْسِيِّ في المتحاورين أنفسهم، والمحيطينَ بالمشهدِ التفاعليِّ درامياً معاً. فهو، بذلك، أداةٌ نقلِ الصراعِ -اختلافِ في فهمِ المواقفِ وتفسيرها وتقديمها للآخر- في شاملِ صورهِ، وأجزائه.

وتمثيلاً لهذا الاتجاهِ الدَّرامي يأتِي حوارُ موسى عليه السلام مع فرعونَ أمامَ مَنْ شَهِدَ هذه الملحمةَ القضائيَّةَ التي تقومُ على حيثياتِ اعتقاديَّةٍ. طَرَفَاها متناقضانِ من حيثُ مقدماتِ الحوارِ، ومن حيثُ نتائجهُ. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَنْ اتَّخَذْتُ آلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾. الشعراء: 23-29.

وهذه الوظيفة الهامة للحوار، كثيراً ما، تتخذُ الأسلوبَ الوصفيَّ التَّصويريَّ بِعَرَضٍ قِصَصِ الواقعِ، ومشاهدِهِ من خلالِ حوارٍ واقعيٍّ مُثْقَلٍ بالألم، والمعاناة. وتَبَيَّنَ داخلَهُ عمليَّةُ الصِّراعِ التَّفاعليِّ بين تقابلِ الشَّخصياتِ في صراعٍ حادٍ ينتهي إمَّا بالقتلِ حرقاً -مثال سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السَّلام- أو بالسَّجْنِ إِذْلالاً حقيقيًّا -مثال سيِّدنا يوسف عليه السَّلام-

- أو افتراضياً على محمول الشرط -لن-. كما هو في هذه الآية مع سيدنا موسى عليه السلام في أحسن حالات انتهاء الصّراع بين المتخاصمين عقيدياً، أو سياسياً.

وبين القتل والسّجن يُصوّر الحوار الدرامي سلسلة من العذاب، والسخرية، والتّهكّم، والتّفي، والتشريد، والمحصرة الاقتصادية، والاجتماعية للمتخالفين من المتحاورين مما يُعجّل بِوَادِرِ الإِفْناءِ الوجودي كقصدٍ جنائي. يُصوّر هذا الحوار في بعده الدرامي. كما تصوّره باقي حوارات الأنبياء مع أقوامهم، وساداتهم. وبين هؤلاء المتحاورين وأولئك تتحدّد طبيعة العلاقة من حيث مكوناتها التي نعبّر بها عن المدخلات التي تتشكل منها طبيعة الحوار القرآني. فما هي طبيعتها؟ وما هي مكوناتها؟

5. مُدخلات الواقع في الحوار القرآني:

لكل شكل من أشكال التّواصل مدخلاتٌ بها يتميّز. ويتباين عن بقية الأشكال التّواصلية الأخرى. فهناك مدخلاتٌ خارجية -خارج المجال الشّخصي-، وهناك مدخلاتٌ داخلية -تعلّق بطبيعة الشّخص المخاور-. تشكّل ملّمح الشّخصية العامّة. وجاء استخدام هذا المصطلح المعلوماتي لقدرته على تمثّل كلّ مُتغيّر جزئي في دلالة أيّ خطاب، وما لها من تأثير في مجريات عملية الإعلام، والاستعلام التي تُنتجها عملية الحوار خاصّة إذا كان الحوار القرآني في حاجة لمعرفة المتغيّر أكثر من مهمّة.

ففي كثير من مناحي الحياة يجد الإنسان نفسه يواجه حالة فكرية⁸ في أن تكون له وجهة نظر في قضية ذات بال محلّ اختلاف. بحيث تعبّر وجهة نظره عن موقف واحد ضمن مواقف مختلفة، ومتباينة. فيجد نفسه أمام إقناع الآخرين بوجهة نظره، أو يجد نفسه أمام إقناع الآخرين بوجهة نظرهم. وهذه القضايا أو الموضوعات يمكن الإشارة إليها للإفادة منها. فهي تُشكّل أحد المشتركين. فإمّا المشترك التاريخي بين المتحاورين، أو المشترك الإنساني. فنمّة قواسم مشتركة⁹. ومداخلات الحوار القرآني تقوم على فهم دوافع التفكير الجيّد في حلّ مشكلات القضايا المصيرية -وصفية أو معيارية- بتوظيف التفكير الجانبيّ تارة، والتفكير الإبداعيّ أخرى. ومن هنا جاءت أهمية معرفة مُدخلات الواقع في الحوار القرآني كنوع عرفانيّ لفهم مسار حركة التأثير التّفسي.

1.5. مُدخل ذو منحى استعلائي:

إذا تتبعنا محور تنقّل الحوار كآلية تواصلية -إنّجاه أفقيّ بين المتحاورين-، أو كآلية اتّصالية -إنّجاه عموديّ- فسنتبين، هناك، ثلاثة أنواع من مُدخلات الحوار في تحديد طبيعة العلاقة التي تدير التواصل/الاتّصال بين المتواصلين/المتّصلين بالحوار. وأولى هذه المُدخلات مدخل ذو مُنحى استعلائي. ونقصد به ذلك الحوار الذي يصدره القائد كما أصدره الله سبحانه، وتعالى بينه، وبين مخلوقاته في مسألة الخلق الوجودي لعمّار الأرض. فكان الاتّصال المباشر مع الملائكة المكرّمين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. البقرة: 30-32.

فانطلاق قاعدة الحوار السّماويّ (الله تعالى/الملائكة) على محور الاستخلاف الأرضي تقوم على معرفة استشرافية بجرائم مستقبلية سوف تقع بمجرد تحقّق مبدأ الاستخلاف. وهذه المعرفة الاستشرافية قائمة على معرفة استنباطية عبر مراحل سابقة لمبدأ خلق الإنسان. فمن المدخلات الواقعية للحوار ارتكازه على مشهديات تاريخية¹⁰ التي تستلزم وجود مشهديات عمرانية التي سترسم بدورها مفهوم الحضارة الافتراضي الذي سيقع مستقبلا.

فحضارة الخلق القائمة على مبدأ الاستخلاف تتحدّد بالحضور الزماني (سفك الدماء). وهو ما يمثّل الفعل التاريخي. وتتحدّد، أيضا، بالحضور المكانيّ (مبدأ الاستخلاف) الذي سيغيّر الله به عمارة الأرض، وتسييرها وفقّ قوانينه المرتبطة بالتأموس الأعظم. وهذا المدخل ذو المنحنى الاستعلائيّ حقّق الوظيفة الاتّصالية بين الله سبحانه وتعالى مُخْبِرًا، وملائكته مُخْبَرِينَ. اتّصال عموديّ من أعلى الهرم الوجوديّ إلى مَنْ دونه. وذلك بطرح المعلومة ومناقشتها بطريقة عموديّة لتبائن أطراف الحوار: سلطة الخالق وقوته، وتبعية المخلوق، وضعفه.

وهذا ما يبيّن تربيّة الحوار الإعلاميّ في جليل مقام، ورفيع معاملة. فعلى الرغم من استعلائية هذا المدخل الحواري إلا أنه هادئ لطبيعة المحمول الإعلاميّ المراد تسريبه للملائكة كجائزة إخبارية، وسبق إعلاميّ حصريّ. إنها بيداغوجيا حوارٍ راقٍ.

أمّا فيما يخصّ المسألة الاعتقادية فإنّ مسار المدخل الاستعلائيّ سيتجسّد بتغيّر المحمول التحواريّ تبعاً لرتبة المعنيّ بالخطاب التحواريّ. أي المتحاور النبويّ المتمثّل في سيدنا عيسى عليه السّلام. وبذلك تتغيّر شدّة أثر المحمول التحواريّ في نفسية المتحاور الأدنى منزلة. وبه يكون الاتّصال محدود الانتشار، ومُحَمَّلًا اللّغة القرآنية "دلالة التّليغ" في حيز هذا الاتّصال المميّز بالاستفهام الإنكاريّ. في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ. إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ. وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ. فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ. وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. المائدة: 116-117.

ففي هذا المقام يأتي المدخل الاستعلائيّ بمحموله الاتّصاليّ حاملاً خبراً غير صحيح، من باب حصوله الارتقابيّ يوم القيامة، وتحضيراً ربّانيّاً للرّدّ العيسويّ على مزاعم قومه من النصارى الذين اتّهموه بتألهه عليهم وأُمّه. فهذا الحوار مُرْعِدٌ فرائض المحاور -عيسى عليه السّلام- على ما أتاه لما يَحْمِلُهُ من رهبة إعلاميّة. قامت على استفهام إنكاريّ. فعَدَم وجود دليل الإِشْرَاق -المحمول التحواريّ-، فهذا يعني عدم وجود الشّرك الاعتقاديّ أصلاً. والدليل على عدم يجعل التّفي حتمية عقلية¹¹.

2.5 . مُدْخَلٌ ذُو مَنْحَى تَكَافُؤِيّ:

يُقصد بالمدخل ذي المنحنى التّكافؤيّ ذلك الحوار الذي يدور بين متحاورين في مستوى مُعَلَّقٍ على التّساوي الاجتماعيّ، أو الدّينيّ، أو الوظيفيّ. ولقد تبيّن أن هناك نوعين من هذا الحوار. حوار الأنبياء مع أقوامهم. فهو حوار بشريّ -بشريّ. قد يكون فيه الطرفان متساويين اعتقاداً، أو مختلفي الاعتقاد. كأن يكون حواراً بين مؤمن، وكافر أو مؤمن، ومؤمن. لذلك سيقصر البيان على النوع الأول لتلّس طبيعة محمولاته الحوارية. والمثال المسوّق، لذلك، هو حوار النّبيّ نوح عليه السّلام مع قومه في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٥٩﴾. الأعراف: 60 – 61 – 59.

فالحوار ذو المدخل المغلق دار بين النوع الإنسانيّ في دائرة مغلقة التّواصل. بين النبيّ نوح عليه السّلام، وبين قومه الكافرين. فهو من الجانب الإنسانيّ فيه تساوٍ وندّيّة بالمفهوم الاجتماعيّ. أما من الجانب العقيدّي فهناك تباين تواصلّي بمثله مُرَجِّحٌ بيانيّ هو مُرَجِّحُ الإيمان، والكفر. فهذا الحوار مرتبطٌ بـ"نظرية الحاجات" التي تُسَعِّفنا في تحديد منطلقات المتحاورين الاجتماعيّة، والعقيدّة، ودوافعهم النفسيّة، وأولويّاتهم القياديّة. فتحرّك الحوار لدى النبيّ نوح عليه السّلام هو الشّققة على قومه مما سينالهم عقاباً على كفرهم. وهذا ما تنبأ له -على الرغم من تعقيدات السلوك الإنسانيّ- النبيّ بعدما راجع ماضي الأقوام الذين كفروا برّبهم، وما لاقوه من عذاب. "فالرجل الحكيم يقول -وهو مُحَقِّقٌ في ذلك- إنَّ مَنْ يَرَعِبُ فِي التَّنَبُّؤِ بالمستقبل يجب أن يُراجِعَ الماضي حيث إنَّ الأحداث الإنسانيّة تُشابه تلك التي جرت في أوقاتٍ سالفة". فالتّحاورُ تمّ على أساسٍ تواصلّيٍّ أفقيٍّ. انتقل فيه المحمُولُ التّحاوريّ من دعوة القوم إلى عبادة الله، والخوفِ عليهم من مخالفة ذلك إلى تسفيهه، ورُميه بالضّلال محتتماً بنفي الضّلال عنه بتأكيد رسالته، وصِدْقِ بُيُوتِهِ. وذلك في شكلٍ تداوليٍّ دائريٍّ مُغلَقٍ بين النبيّ نوح عليه السّلام وقومه.

5. 3. مُدْخَلُ ذُو مَنْحَى اسْتِصْغَارِيٍّ:

يُعَدُّ المُدْخَلُ الاستِصْغَارِيُّ نموذجاً للحوار القرآنيّ الذي لا يَتَحَقَّقُ بِهِ الاتِّصَالُ، ولا التَّوَصُّلُ. فهو على الرغم من أنّه مباشرٌ بين طرفيّ الحوار: طرفٍ مُسْتَعْلٍ، وطرفٍ مُسْتَعْلَى عليه إلا أنّه لا يُحَقِّقُ المحمُولَ الحواريّ، ولا القصدَ الإعلاميّ. فهو مَوْقِفٌ مُوقِفٌ لاستمراريّة الحوار. ونقصُ به ذلك الحوار الذي دار بين الله سبحانه، وتعالى، وبين إبليس الملعون - كما هناك نوع آخر يُجَسِّدُهُ حوارُ الأنبياء مع إبليس-. فمساوٍ الحوار به استعلاءُ إلهيّ من جهةٍ أمامَ استِصْغَارِ إبليس، واحتقاره. وفي الجهة المعاكسة هناك استعلاءُ إبليس على آدم عليه السّلام مما يبرز فظاعة الكبر، والتفكير العنصريّ، ومدى تأثيره في المصير الحياتيّ. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ أَنُظَرُني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. الأعراف: 12 – 16.

فالحوار، هنا، تشخيصٌ لمحمولاته المرتبطة باستِصْغَارِ إلهيّ لإبليس المتعالي سُجُوداً لآدم. فهناك تجاوزٌ لحيثيّات الحوار الذي أغلقه إبليس بتمرّده. فكانَ لهذا المحمُولِ الحواريّ أن أغلق مسارَ توجيهِ عَمَلِيّةِ التَّوَصُّلِ أو الاتِّصَالِ بفعل الإرجاء بقوله تعالى: "إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ". فهو مُدْخَلٌ غيرٌ مُحِلٍّ إعلاميّاً على أيّ نوع من أنواع التَّوَصُّلِ/الاتِّصَالِ -على الرّغم من محاوره الله سبحانه، وتعالى إبليس الذي أنهى الحوار مع ربّه- الذي يُجَدِّدُ طبيعة إبليس النفسيّة. لقد طَلَبَ الخُلُودَ من أجلٍ تَدْمِيرِ الإنسان في ذاته عاجلاً، وتخطيم دُرَيْتِهِ آجلاً.

إنّه موقفٌ دراميّ جَسَدَ عِبْرَ طبيعة هَذَا المُدْخَلِ الحواريّ. كَمُدْخَلٍ واقعيٍّ مأساويٍّ. إن القرآن الكريم يجعل الحوار سبيلاً إلى كُلِّ قضاياءه. ويجعل كُلَّ خلافه مع إبليس، ومخالفه قائماً على الحوار. ولا يجعل من القسوة مدرّكاً لذلك. وإنما يَتَخَذُهَا جزءاً للمُصَرِّينَ على الباطلِ عِناداً بَعْدَ ظُهُورِ الحَقِّ لُصْبَحَ أداةً تقويميّةً لإعادتهم إلى الحقّ. فهذه بعضُ مُدخلات

الحوار الواقعيّ التي تُسهم في تبيين مَعْمَارِ الحوار القرآنيّ، وهندسته لتحقيق الفُصُود الإعلامية بين اتّصال -انتقال المعلومات من جانب واحد -كنظام مُعلّق وعموديّ، وتواصل -انتقال وتبادل البيانات والمعلومات بين كافة المتحاورين داخل التنظيم التحواريّ- كنظام مفتوح وأفقيّ. ولكل مُدخل مخرجائه التي تتحقّق بها القيمة البيانيّة -جماليّة كانت أو دراميّة- كوظيفة إعلاميّة في السياق العامّ لواقعيّة الحوار القرآنيّ.

6. مخرجات الواقع في الحوار القرآنيّ:

يُفصّد بالمُخرَج الواقعيّ ذلك المعطى المعرفيّ، أو البيانيّ -اتّصاليّاً أو تواصليّاً أو انفصاليّاً- الذي يَنُتْج عن طبيعة المُدْخِل. فطبيعته المُدْخِل تتحكّم في طبيعة المخرج. فلكلّ فعل (مدخل إعلامي) ردّ فعل (مخرج اتصاليّ/ تواصليّ/ انفصاليّ). فهي "عملية الكرّ والفرّ" التي تُسيّر استراتيجية الحوار القائمة على "نظرية أجزاء المُخّ الثلاثة". فتبعا لتلك المداخلات المُغلّنة عنها تأتي مخرجاتها:

1.6. المخرج الاتصاليّ:

يُدْخِل المخرج الاتصاليّ من جهة مُدْخِله القائم على الإعلام من جهة واحدة فقط. فالله سبحانه، وتعالى أعلم ملائكته بما سيخلقه خليفة. فكان لهذا الفعل الإعلامي (اتّصال أحاديّ/إخبار إلهيّ) ردّ فعل استفهامي فقط (أتجعل فيها؟). ولا شأن لهم بالآتي وجوذاً. فالمخرج الاتصاليّ مرتبطٌ بمركز التفكير الزاحف المتعلّق بالفعل، وردّ الفعل كاسلوب "الكرّ والفرّ" دون التفكير فيما يجري داخل الوسيط الإعلاميّ -الحوار الباني-. وقد ترتبط هذه المرحلة الإخراجيّة بالبقاء في حالة جمود، أو حيرة وسط أزمة متصوّرة كاستجابة طبيعية أمام بداعة المُدْخِل الاتصاليّ الفريد من نوعه. وهي عملية خَلَقِ آدَمَ عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. البقرة: 30. لقد حقق المخرج الاتصاليّ قيمةً بيانيّةً جديدةً لم تُعرفها الملائكة الكرام.

2.6. المخرج التّواصليّ:

يأتي المخرج التّواصليّ بكونه وسيطاً حوارياً بين متواصلين إعلامياً -نوح وقومه- لمدة زمنيّة طويلة -مدة نبوة نوح في قومه-. كان الحوار فيها مفتوحاً مكانيّاً، وزمانيّاً، وحيثيّاً -إحداثيات واقعية معيشة-. ارتبط بتوزيع أدوار الحوار الذي اعتمد نمطاً تفكيرياً تدينيّاً وسيطاً أو ثانويّاً لكونه موضع العواطف، والمشاعر، والمعتقدات التي ارتبطت بسخرية المجتمع من دعوة نوح عليه السّلام. وقد يبدو المخرج التّواصليّ دراميّ النزعة لما تمّ تفعيله من قُدّرات إعلاميّة وبيانيّة أطالت عُمرَ الحرب الكلاميّة لترشيد المنحنى البيانيّ الإنسانيّ نحو الصُّعود ارتباطاً بمصدر الوحيّ الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ. قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾. الأعراف: 59-60-61.

أما هذا المخرج الاتصاليّ فيُحقّق قيمةً توازنيّةً موجودة فعليّاً بين المتزوّدين من قومه بين الكفر، والإيمان. فهي قيمة تبادليّة الأدوار بين النبيّ تارةً، وبين قومه تاراتٍ أخرى في رميه بالضلال، ونفيه عن نفسه ما زُمي به عبر الوسيط الحواريّ التّواصليّ.

3.6. المخرج الانفصالي:

يرتكز المخرج الانفصالي على نزعة إبليس الاستعلائية على السُّجود تعظيماً لخلق آدم التي تمّ بموجبها إنهاء الحوار بطلبه الإرجاء الذي تفضل الله سبحانه، وتعالى بمنحه إياه في انتظار ما سيناله من عذاب القيامة. فانفصال التواصل قائم على طبيعة العناد، والكبر الذي أهلك إبليس. وما الاستفهام الإلهي عن العصيان إلا إنكار قصدي مما استوجب إيقاف التواصل.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. الأعراف: من 12-16.

فبمخرج إبليس من رحمة الله انفصمت عرى التواصل بينه، وبين خالقه إلى يوم الدين. وهو بهذا الخروج الآثم تمّ استدعاء مركز التفكير العالي لديه أين يقوم فيه إبليس بوزن الموقف منطقياً لوضع خطة عمل واعية تُستغل فيها بيانات التفكيرين/المُحَيَّنِّ الرَّاحِف -الابتدائي-، والتَّذَيِّ -الثانوي- لتدقيقها، وتحليلها قصد تنفيذ قراراته التضليلية، والإغوائية لبني آدم. فقام بقطع الاتصال الإعلامي مع الله، وفتح مع البشر فتحاً خاصاً، وفردياً عن طريق الوسوسة الإعلامية. ويصبح القصد الإعلامي منفصلاً عن بقية القُصود الأخرى. فهو عمل فردي يتكفل به إبليس بعدما استفاد من الإرجاء/الإنظار الإلهي. فهذا المخرج الانفصالي يُحقّق قيمة بينائية تدميرية تقويضية لكل تواصل بين البشر، وخالقهم باستثناء عباد الله المُخْلِصِينَ.

7. خاتمة:

للحوار القرآني قدرةً جماليةً على تأسيس الإقناع البياني عبر هدم منصات الانغلاق الإعلامي جدلاً أو جحوداً. ذلك أن عملية الوسيط الحوارية تنطلق -افتراضاً- من وجود مقاومة الاستماع ابتداءً. ثم ينتقل من مرحلة الاستماع الإعلامي إلى مرحلة التدبر التواصلي من خلال طبيعة مداخلاته للانتقال إلى الاستعداد لاستلام الفعل الإعلامي إلى مرحلة الأداء الفعلي المرتبط نهايةً بتلك الراحة النفسية التي تتعشّى المتلقي مما تدفعه للاستمرار في تحقيق محمولات هذا الحوار. وما محمولات هذا الحوار القرآني سوى مُخرجاته التي تحقّق في امتدادها التحويري الاتصال أحمدي الاتجاه، والتواصل ثنائي الاتجاه، والانفصالي منعدم الاتجاه.

8. هوامش:

¹- شالين، جان، الإنسان نشوؤه وارتقاؤه، تعريب: الصادق قسوم، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، دمشق: 1966، ص:14.

²- Jean-Pierre Myniac: Enseigner avec la pédagogie différenciée, collectif, pédagogie différenciée en HISTOIRE-GÉOGRAPHIE, BULLETIN DES PROFESSEURS DE L'ACADEMIE DE STRASBOURG, N°31, AVRIL 1987, P 1.

- ³- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط8، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان: 2005، ص ص32، 380، 381.
- ⁴- الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، مراجعة: م محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة: 2009، ص10.
- ⁵- رينيه ديكارت، حديث الطريقة، تر: عمر الشارني. بيروت: 2008، ص 24.
- ⁶- بن عبد الدائم أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت: 1996، ص: 112.
- ⁷- مونسي حبيب، المشهد السردي في القرآن الكريم، قراءة في قصة سيدنا يوسف، مطبعة الراشد. سيدي بلعباس، الجزائر: 2009، ص 176.
- ⁸- يس عمرو صالح، كتاب التفكير النقدي طبيعة الحاجة وأنواعها، دار تمكين، بيروت: 2015، ص 36.
- ⁹- حسن، عبد السلام، "الحوار أدبه، ضوابطه"، مجلة الخافجي، السعودية، مجلد39، عدد05، 2009، ص 28.
- ¹⁰- طه، عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان: 2013، ص 182.
- ¹¹- فضل الله محمد حسن، الحوار في القرآن قواعده، أساليبه، معطياته، ط5، دار الملاك، بيروت: 1996، ص 101.
- *- "نظرية الحاجات" لعالم الاجتماع (أبراهام ماسلو ABRAHAM MASLOW). هي نظرية هامة نستطيع من خلالها تحديد منطلقات التفاوض الرئيسة ودوافعه وأولوياته لمفاوض ما أو محاور. يُنظر: جيرارد إ. نيرنبرج، أسس التفاوض، تر: حازم عبد الرحمن، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر: 1998، ص 7.

9. قائمة المراجع:

القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

- 1- بن عبد الدائم أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تح: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996).
- 2- الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، مراجعة: م محمد تامر وآخرون، (القاهرة: دار الحديث، 2009).
- 3- جيرارد إ. نيرنبرج، أسس التفاوض، تر: حازم عبد الرحمن، (مصر: المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1998).
- 4- حسن، عبد السلام، "الحوار أدبه، ضوابطه"، مجلة الخافجي، السعودية، مجلد39، عدد05، 2009.
- 5- رينيه ديكارت، حديث الطريقة، تر: عمر الشارني، (بيروت: 2008).
- 6- شالين، جان، الإنسان نشوؤه وارتقاؤه، تعريب: الصادق قسوم، (دمشق: المؤسسة العربية للتحديث الفكري، 1966).
- 7- طه، عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، (بيروت، لبنان: الشركة العربية للأبحاث والنشر، 2013).
- 8- فضل الله محمد حسن، الحوار في القرآن قواعده، أساليبه، معطياته، ط5، (بيروت: دار الملاك، 1996).
- 9- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط8، تح: محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، 2005).

10- مونسى حبيب، المشهد السّردىّ في القرآن الكريم، قراءة في قصة سيدنا يوسف، (سيدي بلعباس، الجزائر: مطبعة الرّاشد، 2009).

11- يس عمرو صالح، كتاب التفكير النقدي طبيعة الحاجة وأنواعها، (بيروت: دار تمكين، 2015).

12-Jean-Pierre Myniac: Enseigner avec la pédagogie différenciée, collectif, pédagogie différenciée en HISTOIRE-GEOGRAPHIE, BULLETIN DES PROFESSEURS DE L'ACADEMIE DE STRASBOURG, N°31, AVRIL 1987.